

THE DEVELOPMENT OF ISLAMIC EDUCATION THROUGHOUT ISLAMIC HISTORY

بسم الله الرحمن الرحيم

تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي وتحديات دراسته

د. هيفاء فياض فوارس
أستاذ مساعد قسم الدراسات الإسلامية
جامعة اليرموك/ كلية الشريعة
إربد - الأردن
hyefa@yu.edu.jo

لخص الدراسة

هدفت الدراسة إلى الكشف عن مراحل تطور التربية الإسلامية وأبرز التحديات التي وقفت في طريق دراستها؛ ولتحقيق هذا الهدف سلكت الباحثة المنهج الوصفي التحليلي والمنهج التاريخي.

وقد خلصت الدراسة إلى أن دراسة تاريخ التربية الإسلامية حاجة ضرورية في الحقل المعرفي التربوي تسهم في تتبع النماء المعرفي، والكشف عن العناصر التربوية الحية في التراث التربوي الإسلامي والفكر التربوي المعاصر. وأن أهم المراحل التي تخللت تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ هي: النشأة والتأسيس، والبناء والتطبيق، والازدهار، والتذبذب بين القوة والضعف، والتجديد وإعادة البناء.

هذا وتوصي الدراسة الباحثين بضرورة القيام بدراسات أكثر عمقاً وتمحيصاً للتراث التربوي الإسلامي للكشف عن عناصر النظرية التربوية الإسلامية.
(الكلمات المفتاحية: التربية الإسلامية، مراحل التطور التربوي)

ABSTRACT

The study aimed to reveal the stages of the development of Islamic education and the major challenges in the her study; To achieve this goal the researcher followed the descriptive analytical method and historical approach. The study concluded that the study of the history of Islamic education is an essential need in the field of education. contribute to cognitive track development, and the disclosure of the educational elements living in the Islamic educational heritage and contemporary educational thought. And that the most important stages that permeated the development of Islamic education through history are: Origin and foundation, construction, application, and prosperity, and the oscillation between the strengths and weaknesses, and renewal and reconstruction. This study recommends that researchers need to do more in-depth studies and scrutiny Islamic educational heritage to reveal elements of Islamic educational theory.

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله، وصحبه أجمعين، والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإن التربية الإسلامية نظام متكامل في إعداد الفرد المسلم، وإخراج الأمة المسلمة، فهي تسهم في بناء الإنسان المتكامل في شخصيته، المنضبط في دوافعه، المتزن في انفعالاته، وهذا الإعداد محكوم بما جاء به الإسلام من قيم ومبادئ وتعاليم إلهية توجه سلوك الفرد عملاً بقوله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك: 14).

ومن جهة أخرى فإن التربية الإسلامية تعنى كل العناية بالمجتمع، فهي علم مرتبط بعملية اجتماعية تسهم في إخراج مجتمع مؤمن بالله، محفوظ من الانحراف والميل عن جادة الطريق بتفعيل قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: "كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ خُرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ" (ال عمران: 110) وقد بدأت نشأة التربية الإسلامية في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، مع بدء رسالة الإسلام، وهي مستمرة باستمرار الإسلام؛ لذلك تطورت مع تطور العصور التي مر بها المسلمون، وتأثرت بمراحل قوة المسلمين وازدهارهم، وعوامل ضعفهم وانكسارهم. من هنا تأتي الدراسة الحالية لتقف على حقيقة التطور التاريخي لمسيرة التربية الإسلامية عبر العصور والقرون، إلا أن الدراسة التاريخية ليست من السهولة بمكان، خاصة أنها تواجه مجموعة من التحديات تحاول تخطيها؛ بهدف إخراج تصوراً تاريخياً لعلم التربية الإسلامية، والذي تهمله الدراسات التربوية المعاصرة في الغالب.

مشكلة الدراسة وأسئلتها:

إن غموض التطورات التي اعترت موضوعات التربية الإسلامية عبر التاريخ، وعدم القدرة على الكشف عن مواطن تقدمها اقتضى دراسة تاريخية تقف على حقيقة المراحل التاريخية التي مر به المجتمع الإسلامي، ومن ثم الكشف عن انعكاسات قوة هذه المراحل وضعفها على التربية الإسلامية. من هنا تحاول الدراسة الحالية الإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ما مبررات دراسة التربية الإسلامية؟
- ما أهم التحديات التي تقف في طريق دراسة مراحل تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي؟
- ما أهم مراحل تطور التربية الإسلامية من عهد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى الحاضر المعاصر؟

أهداف الدراسة:

- تهدف الدراسة الحالية إلى تحقيق ما يأتي:
- بيان مبررات دراسة تطور التربية الإسلامية.
- توضيح أبرز التحديات التي تقف في طريق دراسة تطور التربية الإسلامية.
- الكشف عن أبرز المحطات والمراحل التي مر بها تطور تاريخ التربية الإسلامية.

أهمية الدراسة:

تتبع أهمية الدراسة من أهمية نتائجها في الحقل المعرفي إذ تسهم في إعطاء صورة حية لمدى تعامل التربية الإسلامية مع معطيات كل مجتمع، ومدى إسهامها في حل مشكلاته. في حين تتبع أهميتها في الحقل العملي مما تقدمه للفئات التربوية من استراتيجيات تسهم في حسن التعامل مع المعطيات المعاصرة.

منهج الدراسة:

اتبعت الباحثة في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي، والمنهج التاريخي: وذلك من خلال جمع المعلومات التربوية التاريخية، وتحليلها في ضوء عوامل قوة المجتمع وضعفه، واستنتاج أبرز القضايا التربوية، ومن ثم استنتاج أهم سمات التربية الإسلامية في كل مرحلة من المراحل.

المحور الأول: ضرورة دراسة تطور التربية الإسلامية والحاجة إلى

أولاً: مبررات دراسة تاريخ التربية الإسلامية

إن دراسة التربية الإسلامية تتطلب الوقوف على تاريخها؛ وذلك نظراً للمبررات الآتية:

1. تتبع نما العطاء التربوي الإسلامي عبر التاريخ الإسلامي، وربط الخبرات الماضية بالواقع المعاصر

إن المتتبع لتاريخ التربية الإسلامية يجد أن هذه التربية في مطلع الحضارة الإسلامية استوعبت حاجات ومشكلات المجتمعات التي وصلها المد الإسلامي، كما مكنت الفرد المسلم من استيعاب الثقافات التي يواجهها في البلاد المفتوحة، فتفاعل معها، ثم استأنف مسيرة الفكر الإنساني فكان ذلك الإنتاج الثقافي، وكان التراث العلمي الذي نما وتطور¹.

2. الكشف عن العناصر التربوية الحية في التراث الإسلامي، وتقييم مدى تعامل المربين المسلمين مع ظروف الحياة التي عاشوها، والاستفادة منها، والبناء عليها.

3. تعزيز صفات الموضوعية والنقد البناء لدى الباحث والدارس للقضايا التربوية الإسلامية، يقول شيحة: "إن دراسة تاريخ التربية تنمي القيم الإيجابية مثل: تقبل الآخر وقراءة أفكاره بعيداً عن النقد لمجرد النقد، كما تعلم التواضع ونكران الذات من خلال اكتشاف أن أفكارهم ليست جديدة كل الجدة؛ لأن هناك من سبقهم إليها أو إلى ما يتعلق بها"².

4. إبراز اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي وفهمها في إطارها التاريخي المتدرج، فلم يكن على سبيل المثال التيار الفقهي أو الصوفي وليد اللحظة إنما كان نتيجة ظروف مر بها التاريخ الإسلامي قويت هذه الاتجاهات في ظروف، وأخفت صوتها في ظروف أخرى.

ثانياً: مشكلات تقف في طريق الدراسات التاريخية للتربية الإسلامية

على الرغم من أن المبررات السابقة تجعل من دراسة تاريخ التربية الإسلامية حاجة لا بد منها، إلا أن هذه الدراسة محاطة بمجموعة من المشكلات التي تجعل الكشف عن القضايا التربوية عبر التاريخ الإسلامي أمراً ليس بالسهل، ومن أبرز هذه المشكلات ما يأتي:

1. تتناثر القضايا التربوية في التراث التربوي، إذ يتطلب البحث في تاريخ التربية الإسلامية الوقوف على المصادر التاريخية المختلفة، وذلك من خلال دراسة متكاملة للتاريخ الإسلامي، خاصة أن القضايا التربوية في القرون الهجرية الأولى كانت متداخل باقضايا الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ولا يقتصر الأمر في المصادر عند كتب التاريخ، إنما يتعداه إلى الوقوف على المعالم الأثرية التي حملت ثروة تربوية عبر التاريخ الإسلامي أيضاً، فلو نظرنا في تجربة أحمد شلبي الذي يعد من أوائل من كتب في تاريخ التربية الإسلامية في القرن العشرين، لوجدناه بذل جهداً كبيراً³ في سبيل إخراج دراسته: "تاريخ التربية الإسلامية، وقد استند فيها على مصادر:

¹ انظر: الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ص16.

² انظر: شيحة، تطور الفكر التربوي في العصور القديمة والوسطى، ص21.

³ أخذ تأليف كتاب تاريخ التربية من شلبي جهداً كبيراً، إذ ارتحل في سبيل جمع مادته إلى المكتبة الوطنية في باريس، ومكتبة ليدن بهولندا ومكتبة الأستراليال بإسبانيا، ثم عرج إلى الشرق الأوسط فزار مكتبات في مصر وسورية والعراق وفلسطين وتركيا، وأماكن التعليم القديمة فيها.

دراسة الأمكنة واللوحات التاريخية، والرسائل التعليمية التراثية، والمؤلفات في الثقافة العامة، وكتب التاريخ⁴.

2. غموض التطورات التي اعترت موضوعات التربية الإسلامية عبر التاريخ، وعدم القدرة على الكشف عن مواطن تقدمها أو ركودها، الأمر الذي جعل تشخيص هذه التطورات تشخيصاً علمياً أمراً صعباً إذ يصعب فيه تحديد العوامل والمظاهر؛ بغية تحديد المنطلقات اللازمة التي تحفظ للمجتمعات الإسلامية المعاصرة أصالتها وتعبر بها المستقبل ضمن عالم معاصر متطور⁵.

3. الخلط بين آراء التربويين الخاصة، وآراء العصور التي عاشوا فيها، إذ يصعب تحديد الأصل والدخيل فيما يرد على ألسنة المفكرين من آراء⁶.

وهذه الإشكالية وقع فيها كثير من الباحثين الذين درسوا الفكر التربوي عند المربين المسلمين، حيث لم يفرق كثير منهم بين الفكر التربوي للمربي، والفكر التربوي الذي ساد في عصره، إذ نقل الدارسون آراء العصر باعتبارها آراءً خاصة بالمربي⁷.

⁴ انظر، شلبي، تاريخ التربية الإسلامية، ص29.

⁵ انظر، الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ص17.

⁶ انظر: مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص16-17.

⁷ هناك عدد من الرسائل الجامعية التي وقعت في هذه الإشكالية مثل: الفكر التربوي عند السيوطي، والفكر التربوي عند هارون الرشيد، وهذه الرسائل نوقشت في قسم الدراسات الإسلامية في جامعة اليرموك.

المحور الثاني: طرق دراسة تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ

اختلفت طرق الباحثين في دراسة تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ⁸: فمنهم من تتبع مسألة تربوية فردية أو جزئية، ومنهم من تتبع التربية الإسلامية في عناصرها المختلفة وفق قرون، أو عصور، أو مراحل. وفيما يأتي تحاول الباحثة بيان طرق الدراسات التاريخية للتربية الإسلامية:

1. الدراسة التاريخية لمسألة تربوية واحدة عبر التاريخ الإسلامي: كدراسة المؤسسات التربوية عبر العصور، ومن أمثلة ذلك دراسة علي لتطور عدد من مؤسسات التعليم في كتابه: "معاهد التعليم الإسلامي".
 2. دراسة موضوعات التربية الإسلامية عبر القرون مثل دراسة الكيلاني في كتابه: "تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية"، إذ تناول عناصر النظرية التربوية المختلفة من القرن الأول الهجري إلى القرن الرابع عشر الهجري.
 3. دراسة التربية الإسلامية بالنظر إلى العصور الإسلامية، وما عتراها من تحولات انعكست على التربية الإسلامية، ممثلة بعصر الرسالة، وعهد الخلفاء الراشدين، وعصر الدولة الأموية، وعصر الدولة العباسية، وعصر الدولة العثمانية. وذلك من خلال تناول عصر واحد أو أكثر. ومن أمثلة ذلك دراسة أبو زريق: "دور العصر العباسي في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي".
 4. دراسة الفكر التربوي عند المربين المسلمين، وذلك من خلال إبراز آرائهم التربوية في إعداد الأجيال المسلمة، ومن ذلك كتاب: "من أعلام التربية العربية الإسلامية" الصادر عن المكتب العربي لدول الخليج، والذي تناول عدداً من المربين عبر التاريخ الإسلامي.
 5. دراسة التطور التاريخي للتربية الإسلامية لمدينة أو دولة بعينها، ومن أمثلة ذلك دراسة ملكة: "التربية والثقافة العربية الإسلامية في الشام والجزيرة خلال القرون الثلاث الأولى".
 6. دراسة التربية الإسلامية من خلال تقسيم التطور إلى مراحل، ومن أمثلة ذلك دراسة مرسى: "التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية"، حيث قسم مراحل التطور إلى أربع مراحل: البناء، والازدهار، والتدهور والانحطاط، والتجديد. وكثير من الباحثين التربويين الذين قسموا تطور التربية إلى مراحل ساروا على هذا التقسيم.
- وبالبحثة في هذه الدراسة تحاول أن تعرض تطور التربية الإسلامية وفق مراحل من خلال بيان العوامل التي ساهمت في ظهور كل مرحلة وبيان سمات التربية الإسلامية فيها، حيث تجتهد الباحثة في تصنيف هذه المراحل إلى: مرحلة النشأة والتأسيس، ومرحلة البناء والتطبيق، ومرحلة النضج والازدهار، ومرحلة التذبذب بين التقدم والجمود، ومرحلة التجديد وإعادة البناء، وبيان هذه المراحل في المحور التالي.

⁸ انظر: الرشدان، الفكر التربوي الإسلامي، ص 106.

المحور الثالث: مراحل تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ

يقف هذا المحور على بيان كل مرحلة من خلال بيان المدة الزمنية التي تخللت كل مرحلة، وأبرز العوامل التي سقلتها، وأهم سمات التربية الإسلامية فيها وذلك على النحو الآتي:

أولاً: مرحلة النشأة والتأسيس

جسدت هذه المرحلة عصر الرسالة الإسلامية، ويعد الوحي وحده في هذه المرحلة مصدراً للتربية، والنبى -صلى الله عليه وسلم- هو المربي لأجيال الرسالة، فكانت الرسالة الإسلامية نقطة التحول في حياة الناس، ونقلهم من جاهلية الشرك والتخبط والضلال إلى نور الهدى والاستقرار.

إذ كان الدين ولا يزال قو لا تماثلها قوة ذات أثر ضخم في تحريك الأحداث التاريخية، ولا تسمح هذه الحقيقة لأحد أن يزعم أن العقيدة الدينية تستطيع الجماعة أن تلغيه ويستطيع الفرد أن يستغني عنه في علاقته بتلك الجماعة، أو فيما بينه وبين نفسه حيث لا أحد يستطيع أن يستكنه ما يدور فيها⁹.

وإذا كان الإنسان دائماً في حاجة ماسة إلى التربية كي تحول مثل الدين الفكرية إلى واقع سلوكي، كانت الحاجة ماسة والضرورة ملحة في القرن السابع الميلادي لتربية إسلامية خالصة، أسهم في التأسيس لها عاملان مهمان هما:

1. تفسخ الأطر الفكرية وقصور النظريات السائدة آنذاك عن تربية الإنسان الصالح، يقول علي: "فإن الأطر الفكرية التي كانت أمام الإنسان قبيل ظهور الإسلام -إذا كان بعضها قد ظهر في فترة من الفترات تلبية لحاجة - بحيث استطاع أن يلعب الدور الرئيس بالفعل في إعادة تشكيل الإنسان من جديد، إلا أننا في الفترة التي نشير إليها أنها كانت قد فقدت مضمونها الرئيس لما أصابها من تحريفات وبما حدث من تجاوز لواقع المجتمعات؛ لما تدعو إليه هذه الأطر¹⁰".

2. أن الوحي جاء بمنهج تربوي رباني متكامل يبدأ بإعداد الفرد المسلم، من خلال تكوين شخصيته المتكاملة، وينتهي بإخراج الأمة المسلمة المتمسكة بهويتها الإسلامية، والمنتمية إليها؛ مما يتيح لها قدراً من القوة الذاتية، والقدرة على الانفتاح على غيرها، ومن ثم تحقيق غاية الوجود الإنساني: تحقيق العبودية لله تعالى.

ولما كانت الرسالة الإسلامية هي الرسالة الخاتمة التي يجب أن تستمر حتى يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الأمر يتطلب وضع الأسس الثابتة الراسخة الوثيقة لإعداد أجيال تحمل الرسالة كما هي على مدى تتابع العصور بأمانة ووعي وفاعلية وإخلاص؛ مما اقتضى العمل في اتجاهين¹¹:

1. إعداد جيل المعاصرين للرسالة، إذ حولتهم التربية النبوية نماذج لعمق الإيمان، ارتقوا بسرعة مذهلة من القاعدة إلى القمة، فأصبحوا قادة الأمم، وورثة الحضارات، وموازنين العدلومعايير الخير، وحراس الحق.

⁹ انظر: علي، نشأة التربية الإسلامية، ص169.

¹⁰ علي، نشأة التربية الإسلامية، ص176.

¹¹ انظر: الأسمر، النبي المربي، ص71-72.

2. إعداد الأجيال اللاحقة لجيل الصحابة، إذ لم يكن إعداد جيل واحد كافياً لتأمين استمرار حمل الرسالة، لذلك حرص الرسول الكريم على وضع القواعد الأساسية للتربية المستمرة عبر العصور.

فقد بدأ إرساء قواعد التربية الإسلامية الأساسية في جذورها الفكرية مع البعثة العربية للرسول العربي الكريم، واستمرت في حياتها إلى هذا القرن الخامس عشر الهجري، وستبقى بحفظ الله ما بقي الإنسان¹²، وقد ظهر ذلك في أجيال الصحابة التي رباها النبي -صلى الله عليه وسلم-، ثم ساروا من بعده على تلك القواعد التربوية التي أرساها الإسلام؛ لتبقى هذه القواعد عناصر حية لإعداد الأجيال المسلمة القادرة على حمل أمانة التكليف إلى قيام الساعة.

ثانياً: مرحلة البناء والتطبيق

تبدأ مرحلة البناء والتطبيق من بداية عهد الخلفاء الراشدين، وتستمر حتى نهاية الدولة الأموية، حيث ساهم الخلفاء الراشدون الذين رباهم النبي -صلى الله عليه وسلم- في ترسيخ القواعد التربوية التي جاء بها الإسلام.

ومع تطور الحياة في مجالاتها المختلفة في عصر الدولة الأموية ظهرت تطبيقات كثيرة لتلك القواعد التي من خلالها ظهرت مظاهر التربية الإسلامية الخالصة. وقد ساهمت مجموعة من العوامل في ترسيخ قواعد التربية الإسلامية وتطبيقها في هذه المرحلة كان من أبرزها:

1. انقطاع الوحي وبداية زمن الاجتهاد في كل ما هو طارئ ولم يرد فيه نص قرآني أو نبوي¹³.

فقد استمر المسلمون بعد وفاة النبي -صلى الله عليه وسلم- في عهد الخلفاء الراشدين وعصر الدولة الأموية في نشر الإسلام وإعداد الأجيال المسلمة القادرة على حمل أمانة الرسالة الإسلامية متخطين كل التحديات التي واجهتهم.

2. توسع حدود الدولة الإسلامية واحتكاك المسلمين بالثقافات الأخرى.

فحركة الفتح الإسلامي التي قامت في عهد الخلافة الراشدة وبني أمية ليست مجرد توسع في الأرض، إنما هي حركة هداية للناس في التاريخ وأكبر حركة إخراج للناس من الظلمات إلى النور¹⁴.

فقد أسهمت حركة الفتوحات الإسلامية في هذه المرحلة في نشر حضارة المسلمين في مجالها: المادي والمعنوي في الأرض، كما أدى احتكاك المسلمين بالثقافات الأخرى إلى الاستفادة منها، ثم إحداث نقلة نوعية في تطور العلوم وتقدمها.

3. حدوث التغيرات السياسية والاجتماعية في عصر الدولة الأموية -على وجه الخصوص-، إذ كان لها انعكاس على التربية الإسلامية، ومن أمثلة هذه التغيرات: انتقال الحكم من الشورى إلى الوراثة، وانتقال العاصمة من المدينة إلى دمشق، ونشوب النزاعات بين المسلمين، وظهور بوادر العصبية بأنواعها المختلفة.

¹² انظر: الهاشمي، الرسول العربي المرابي، ص25.

¹³ انظر: المحلبي، مقدمة في الفكر التربوي الإسلامي، ص18.

¹⁴ انظر: الصلابي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، ص16.

ساهمت هذه العوامل وغيرها في بناء التربية الإسلامية وبروز المربين الحقيقيين، الأمر الذي جعل للتربية الإسلامية في هذه المرحلة سمات خاصة يمكن تلخيصها فيما يأتي¹⁵:

1. تربية عربية إسلامية خالصة.
 2. تربية استهدفت إرساء قواعد الدين الجديد.
 3. اعتمدت أساساً على العلوم النقلية واللسانية.
 4. اهتمت بالكلمة المكتوبة كوسيلة هامة للاتصال.
 5. أفسحت المجال لتعلم اللغات الأجنبية.
- اعتمدت على الكتاب والمسجد والمكتبة كمراكز ومعاهد للتعليم.

ثالثاً: مرحلة النضج والازدهار

وصلت التربية الإسلامية مرحلة متقدمة في عصر الدولة العباسية، الأمر الذي جعل كثير من الباحثين يطلقون على هذه المرحلة: "مرحلة العصر الذهبي" ولعل هناك مجموعة من العوامل التي أسهمت في تقدمها كان من أهمها:

1. تشجيع الخلفاء البحث العلمي والأدبي، وإكرام العلماء وطلبة العلم؛ نتيجة الاستقرار السياسي، وكثرة موارد بيت المال¹⁶.
2. ازدهار حركة الترجمة، وأخذها الطابع المؤسسي. فقد اتصل الخلفاء العباسيون بعلماء المدارس وكانوا يستدعونهم إلى بغداد، وينفقون عليهم الأموال لترجمة الكتب إلى اللغة العربية، وقد وضع نظام دقيق لهذه الحركة العلمية، فما حل عصر المأمون حتى كان قد ظهر في بغداد ما سمي ببيت الحكمة الذي جمع بيوتاً كثيرة تترجم فيها الكتب¹⁷.
3. إتاحة قدر من الحرية الفكرية للعلماء؛ مما دفعهم إلى التأليف والبحث، والانتقال من بلد إلى آخر لتلقي العلم والاستفادة منه¹⁸.

لقد ساهمت هذه العوامل وغيرها في نضج التربية الإسلامية، إذ شهدت هذه المرحلة انتشاراً للغة العربية في جميع أنحاء آسيا، وظهور أئمة الفقه والحديث كأبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، والبخاري والطبري المفسر¹⁹.

وعليه فإن التربية الإسلامية في هذه المرحلة بدأت تظهر من خلال المؤلفات المستقلة، وبروز المربين والمؤدبين، كما برزت ملامح الأنظمة التعليمية للتعليم الإسلامي فيها، حيث اتسمت التربية الإسلامية بلامح واضحة، وسمات بارزة كان من أبرزها:

1. إنشاء المدارس كمؤسسات مستقلة ومتخصصة في التعليم، وتدریس فيها إلى جانب العلوم النقلية العلوم العقلية مثل: علوم الفلسفة، والرياضيات، والهندسة، والجبر، والطبيعة، والطب، والتاريخ والجغرافية²⁰.

¹⁵ مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص171

¹⁶ انظر: أبو زريق، دور العصر العباسي في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي، ص32.

¹⁷ انظر: العث، تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص224.

¹⁸ انظر: أبو زريق، دور العصر العباسي في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي، ص33.

¹⁹ انظر: الرشدان، الفكر التربوي الإسلامي، ص116.

²⁰ انظر: مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص172.

2. ظهور الآراء التربوية المتميزة، حيث يعد ابن سحنون والقاسبي من أوائل من كتب عن التربية الإسلامية بصورة متخصصة، علاوة على أن كتاباتهم كانت إسلامية خالصة، ثم تلتها كتابات تربوية أخرى متأثرة بالفكر الإغريقي وغيره أمثال كتابات ابن مسكويه²¹.

3. ظهور اتجاهات الفكر التربوي الإسلامي، فقد نشط الاتجاه الفقهي من خلال حركة المذاهب المختلفة، كما نشطت التيارات: الصوفية، والفلسفية، والكلامية، والشيعية.

وقد كان للحوارات والمناظرات بين الاتجاهات التربوية المختلفة أثر كبير في تنمية الفكر التربوي، إلا أن هذا الأثر الإيجابي سرعان ما تحول ليعصف بفكر الأمة المسلمة فبلغ ذروة التخادم والتنازع والتحالف مع أعداء الأمة المسلمة في عصر الدولة العثمانية.

4. تكامل عناصر النظرية التربوية لدى مربى هذه المرحلة، إذ أن الدارس لمؤلفات التراث التربوي في هذه المرحلة كمؤلفات ابن سحنون، والقاسبي، والزرنجي والغزالي يستدل على عناصر النظرية التربوية الإسلامية بشكل واضح دون عناء في البحث، مع احتفاظ هذه الكتابات بالصيغة الفقهية.

رابعاً: مرحلة التذبذب بين النهوض والجمود:

تمتد هذه المرحلة من بداية حكم الدولة العثمانية وتستمر حتى استقلال البلاد العربية والإسلامية. وقد شهدت هذه المرحلة تقدماً وازدهاراً في مراحل من حكم العثمانيين، تبعتها مراحل تراجع، ثم تخلل مراحل التراجع دعوات إصلاحية وظهر المصلحين المسلمين سواء كان في ظل الحكم العثماني، أو في ظل سيطرة الاستعمار.

وقد كان لكل من التقدم والتراجع انعكاسه على التربية في هذه المرحلة الأمر الذي يتطلب تقسيم هذه المرحلة إلى طورين مهمين هما:

الأول: طور النهضة التربوية²²:

وقد استمر هذا الطور من بداية الحكم العثماني إلى نهاية حكم السلطان العثماني سليمان القانوني، وقد ساهمت مجموعة من العوامل في النهضة التربوية في بداية حكم الدولة العثمانية مثل:

1. اهتمام السلاطين العثمانيين بالعلم والعلماء.
- فقد أنشأ السلطان أورخان المعاهد العلمية، وأشرف عليها خيرة العلماء والمعلمون وكانوا يحظون بقدر كبير من الاحترام في الدولة، وبنى السلطان مراد الأول المدارس، وظهرت العناية الكبيرة بالعلوم الدينية والعقلية²³.
2. القيادات المستنيرة التي مارست أدواراً تربوية في تربية الأمراء وعامة الناس، فاشتهر في هذا الطور قادة أمثال: محمد بن حمزة المشهور بأق شمس الدين، وأحمد الكوراني.

²¹ انظر: مرسى، المرجع السابق، ص16.

²² يحتاج هذا الطور إلى مزيد من الدراسات العلمية المتخصصة؛ وذلك لشح المادة التربوية فيه، وقصور النظر إلى عصر الدولة العثمانية، حيث يسحب كثير من المؤرخين والتربويين مراحل التراجع التي عاشتها في طور ضعفها على العصر بأكمله من غير التفريق بين زمن قوتها وزمن ضعفها.

²³ انظر: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص203-204.

لقد ساهمت هذه العوامل وغيرها في نهضة الحركة العلمية، واتساع رقعتها، وتقدمها في المجالات الدينية والعقلية، كما شهدت تقدماً ونهوضاً حضارياً على مستوى العمارة وغيرها.

الثاني: طور جمود التربية الإسلامية وتدهورها

اتفق المؤرخون على أن عظمة الدولة العثمانية قد انتهت بوفاة السلطان العثماني سليمان القانوني عام (974هـ) وكانت مقدمات ضعف الدولة قد اتضحت في عهد السلطان سليمان²⁴، كما استمر هذا الضعف أيضاً بعد نهاية الدولة العثمانية وتقسيم الدول، واستعمارها. والدارس للتربية الإسلامية في هذا الطور يجد أنها عاشت مرحلة التدهور والانحطاط، وذلك بفعل العوامل الآتية:

1. ندرة القيادات المستنيرة، وتعزيز التعصب والتقليد المذهبي²⁵.
 2. مكائد أعداء الدولة الإسلامية للمسلمين، والحرص على إضعافهم.
- وقد ظهر ذلك من خلال التدخلات الخارجية والتمرد الداخلي، وانتشار المحافل الماسونية في مصر والشام وتركيا²⁶.
3. ظهور الصوفية المنحرفة، والفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

إن من أعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب الله وسنة رسوله -صلى الله عليه وسلم- وقد قوى عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني²⁷.

كما استفحل أمر الفرق خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عاداتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنوداً مخلصين لقيادتهم ومن أشهر هذه الفرق، الشيعة الاثني عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام²⁸.

إن هذه العوامل وغيرها ساهمت في جمود التربية الإسلامية في هذا الطور، والذي يمكن تلخيص أبرز سماته بما يأتي²⁹:

1. العودة للاقتصار على العلوم النقلية.
2. دخول المؤثرات التربوية الغربية.
3. جمود الفكر التربوي الإسلامي خاصة في ظل التصارع والتناحر بين التيارات المختلفة.
4. غلبة الثقافة التركية.

²⁴ انظر: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص209.

²⁵ الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ص111-112.

²⁶ انظر: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص214.

²⁷ انظر: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص218.

²⁸ انظر: الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص219.

²⁹ مرسى، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص172.

إلا أن هذا الوهن والضعف لم يكن في حالة مستمرة، فقد تخلل طور التدهور جهوداً إصلاحية لمصلحين أفاض أمثال: ابن تيمية، الذي طرح منهاجاً فكرياً جاهد فيه ضد الجمود والصوفية، وقامت دعوته على أن العقل وحده لا يكفي، ولا بد من التكامل بين الوحي والعقل، وأنهما لا يتعارضان، وغيرها. وامتدت هذه الدعوة إلى آخرين أمثال ابن القيم الجوزية، والشاطبي ومحمد بن عبد الوهاب، كما ظهرت حركات أمثال: الحركة السنوسية في ليبيا، وحركات: جمال الدين الأفغاني، وابن باديس وغيرهم. وقد كان لهذه الجهود والحركات -التي تخللت طور التدهور- آثار تربوية بارزة، اكتسبت أهمية من جهتين³⁰:

1. تصحيح مسار الفكر الإسلامي ومحاولة رده إلى المنبع الصحيح.
2. زلزلة الكيان الاجتماعي بجميع أبعاده وخاصة في ظل ظهور الفكر الأوروبي الحديث.

خامساً: مرحلة التجديد وإعادة البناء

تجسد هذه المرحلة واقع التربية الإسلامية في العالم المعاصر، إذ أن الشعوب والنخب المثقفة اليوم تتطلع إلى التقدم، وإعادة النهوض الحضاري للأمة المسلمة، وقد ساهمت مجموعة من العوامل في بلورة مفهوم إنساني معاصر للتربية الإسلامية كان من أهمها:

1. المعطيات التكنولوجية والحضارية التي أسهمت في إمكانية الانفتاح على خبرات الآخر، والاستفادة منها.

2. ظهور دعوات تحث التربويين على تبني موقف علمي من التراث التربوي الإسلامي، وذلك من خلال تمحيصه وانتقاء ما يساعدهم لعبور المستقبل وحل مشكلاته ومواجهة تحدياته³¹.

3. إخفاق الجهود التربوية، والمدارس التربوية الحديثة، والفلسفات التربوية الغربية، في إنقاذ الطفولة، والإنسانية من ظلم القرون الأوروبية الوسطى، وظلامها في أوروبا، بل نقلتها من الظلم، والظلام إلى الدمار والضياع، وإلى الميوعة والاضمحلال³².

وقد ساعدت هذه العوامل في ظهور سمات عامة للتربية الإسلامية، كان من أبرزها³³:

1. اقتباس النظم التعليمية الغربية.
2. العناية بالعلوم العقلية والحديثة.
3. تغلغل الثقافة الغربية.
4. محاولة تطوير مؤسسات التعليم التقليدية.

إن التقدم الغربي في العلوم التربوية جعل الأنظمة التربوية العربية تنظر إلى الغرب باعتباره المنقذ فاقترنت أنظمتها ومعارفها، وتطوير التعليم بناء على نماذجها الناجحة، إلا أن هذا الاقتباس وتلك المحاكاة لم تؤت الثمار المنشودة، بل عادت بالثنائية المتناقضة على التعليم في البلاد العربية والإسلامية، الأمر الذي تطلب جهوداً إضافية لإعادة بناء التربية الإسلامية. فقد برز منذ بدايات النصف الثاني من القرن العشرين مجموعة من الباحثين التربويين الذين قدموا خطوات متقدمة في بناء التربية الإسلامية وتأسيسها، والسعي إلى تطبيقها في الأنظمة

³⁰ انظر: العمارة، الفكر التربوي الإسلامي، ص123.

³¹ انظر: الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، ص256.

³² انظر: النحلوي، أصول التربية الإسلامية، ص21.

³³ انظر: مرسي، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، ص172. والرشدان، الفكر التربوي الإسلامي، ص129.

التعليمية المختلفة، أمثال: ماجد الكيلاني، وسعيد علي، وعبد الرحمن النحلاوي، ومقداد يالجن، وغيرهم.

ولم يقف الأمر عند حد الجهود الفردية، إنما تعداها إلى الجهود المؤسسية التي تبنتها معاهد الفكر الإسلامي، والأقسام الجامعية المتخصصة التي حملت لواء التأصيل للتربية الإسلامية كأحد أنشطتها البحثية والأكاديمية.

ومن التجارب العملية التي قطعت شوطاً لا بأس به في هذا المجال: تجربة قسم الدراسات الإسلامية في كلية الشريعة في جامعة اليرموك الذي ضم ثلاثة برامج لهذا الغرض: مسار التربية الإسلامية لتخصص الدراسات الإسلامية لطلبة البكالوريوس، وبرنامجي: التربية الإسلامية لطلبة الماجستير والدكتوراه.

ويقوم على هذا القسم عدد من المتخصصين في التربية الإسلامية من ذوي الرتب الأكاديمية المختلفة، والذين تميزوا بدراساتهم وأبحاثهم التأصيلية، والتجريبية في التربية الإسلامية، إضافة إلى الإشراف على رسائل الماجستير وأطروحات الدكتوراه التربوية.

الخاتمة

أولاً: نتائج الدراسة:

تتمثل نتائج الدراسة فيما يأتي:

1. تعد دراسة تطور التربية الإسلامية ضرورة لا بد منها في العالم المعاصر؛ وذلك من أجل تتبع العطاء المعرفي التربوي، وربطه بالواقع، مما يتيح قدراً من الكشف عن العناصر التربوية الحية في التراث الإسلامي والتي تسهم في بناء النظرية التربوية الإسلامية، كما تسهم دراسة تطور التربية الإسلامية في ربط اتجاهات الفكر التربوي بمعطيات الزمان والمكان التي ظهرت فيه.
2. اختلفت طرق الباحثين في دراسة تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ³⁴: فمنهم من تتبع مسألة تربوية فردية أو جزئية، ومنهم من تتبع التربية الإسلامية في عناصرها المختلفة وفق قرون، أو عصور، أو مراحل. وفيما يأتي تحاول الباحثة بيان طرق الدراسات التاريخية للتربية الإسلامية:

مر تطور التربية الإسلامية عبر التاريخ الإسلامي بمراحل كان من أبرزها:

- أ. مرحلة النشأة والتأسيس التي جسدت عصر الرسالة الإسلامية، حيث رسخت الأسس التربوية فيها، خاصة في ظل تفسخ الأطر الفكرية وقصور النظريات السائدة آن ذاك، ف جاء الإسلام بإطار إلهي، ونظرية تربوية متكاملة لإعداد الفرد وبناء المجتمع.
- ب. مرحلة البناء والتطبيق والتي بدأت بعهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه-، واستمرت حتى نهاية عصر الدولة الأموية. وقد طبق المرءون في هذه المرحلة الأسس التربوية التي أرساها الدين الحنيف على أكمل وجه، فكانت إسلامية خالصة معتمدة على الوحي بشكل مباشر.
- ج. مرحلة النضج والازدهار، والتي تخللت عصر الدولة العباسية، وقد شهدت هذه المرحلة تقدماً في كافة حقول المعرفة، و ظهور الآراء التربوية المتميزة، و ظهور الاتجاهات المختلفة للفكر التربوي؛ وذلك نتيجة للاستقرار السياسي وإغداق الأموال في مجالاتها الصحيحة في تلك المرحلة.
- د. مرحلة التذبذب بين النهوض والجمود، والتي تخللت عصر الدولة العثمانية إلى الربع الأول من القرن العشرين، شهدت خلالها التربية أطوار تقدم، وأطوار تراجع بفعل الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمسلمين في تلك المرحلة.
- هـ. مرحلة التجديد وإعادة البناء وتمثل هذه المرحلة واقع التربية الإسلامية اليوم، حيث ظهرت مجموعة من الاتجاهات الإصلاحية للأنظمة التربوية المعاصرة في البلدان الإسلامية، منها ما رآه في تقليد النظام التربوي الغربي وسيلة، ومنها من حاول أسلمة العلوم التربوية من خلال التأصيل الإسلامي لتلك العلوم.

ثانياً: التوصيات:

في ضوء النتائج السابقة فإن الباحثة توصي بما يأتي:

³⁴ انظر: الرشدان، الفكر التربوي الإسلامي، ص106.

1. القيام بدراسات تاريخية عميقة تكشف أطوار النهوض والتراجع التي مرت بها التربية الإسلامية في عصر الدولة العثمانية.
2. القيام بدراسات تحليلية للتراث التربوي الإسلامي تكشف عن عناصر النظرية التربوية الحية.
3. عقد مؤتمرات تعنى بقضايا التأصيل الإسلامي للعلوم التربوية.

ثالثاً: معوقات الدراسة:

- من أبرز التحديات التي واجهت الباحثة في إجراء هذه الدراسة ما يأتي:
1. عدم وجود موضوعات التربية الإسلامية في مصادر التراث التربوي الإسلامي بمسمياتها، الأمر الذي يجعل الكشف عنها أمر يحتاج إلى مزيد من التحليل والربط لنصوص هذا التراث.
 2. صعوبة تشخيص التطور التاريخي للتربية الإسلامية؛ لارتباطها بالعوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي عاشها العالم الإسلامي في مختلف الأزمان.
 3. صعوبة تحديد الأصيل والدخيل للآراء التربوية؛ نتيجة الخلط الذي وقع به التربويون عند دراسة الفكر التربوي الإسلامي، حيث ينسبون آراء العصور إلى المفكرين التربويين.

قائمة المصادر والمراجع

- الأسمر، أحمد، النبي المربي، دار الفرقان، عمان-الأردن، ط1، 2001.
- الرشدان، عبد الله زاهي، الفكر التربوي الإسلامي، دار وائل للنشر، 2004.
- أبو زريق، ناصر، دور العصر العباسي في توسيع دائرة الفكر التربوي الإسلامي، جامعة أم درمان الإسلامية، كلية التربية.
- شلبي، أحمد، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية: تاريخ التربية الإسلامية نظمها فلسفتها تاريخيها، مكتبة النهضة المصرية، 1980.
- شيحة، عبد المجيد، تطور الفكر التربوي في العصور القديمة والوسطى، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 2006.
- الصلابي، علي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، بواسطة المكتبة الشاملة.
- الصلابي، علي، الدولة الأموية عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، بواسطة المكتبة الشاملة.
- العش، يوسف، تاريخ عصر الخلافة العباسية، دار الفكر، بيروت-لبنان، 2000.
- علي، سعيد اسماعيل، موسوعة التطور الحضاري للتربية الإسلامية: نشأة التربية الإسلامية، دار السلام، القاهرة-مصر، ج2، 2010.
- العميرة، محمد حسن، الفكر التربوي الإسلامي، دار المسيرة، عمان-الأردن، 2000.
- الكيلاني، ماجد عرسان، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية دراسة منهجية في الأصول التاريخية للتربية الإسلامية، دمشق، دار ابن كثير، ط2.
- المحيلبي، بدر حمد، مقدمة في الفكر التربوي الإسلامي، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 2011.
- مرسي، محمد منير، التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، دار المعارف، ط2، 1986.
- النحلاوي، عبد الرحمن، أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة والمجتمع، دار الفكر، 2007.
- الهاشمي، عبد الحميد، الرسول العربي المربي (إنما بعثت مريباً)، دار الثقافة، دمشق-سورية، ط1، 1981.